الغزو الأمريكي للعراق . . . وعسى أن تكرهوا شيئاً

بقلم أ. علي عبد العال

رغم ثقل الكارثة - إنسانياً وأمنياً وسياسياً وتاريخياً - والتحديات الجسام التي واجهتها الأمة الإسلامية مع الغزو الغربي بقيادة أمريكا للتراب العراقي، وما مثله ذلك من هزيمة تاريخية وحضارية للأمة، في ظل ما تتمتع به من مقدرات - كانـت ولازالـت - كافية لصد مثل هذا الهجوم وأضعافه. ورغم الإقرار الذي لا سبيل إلى إنكاره بما صاحب ذلك الغزو من جرائم وفظائع عجـزت الإنسانية عن تحمل بشاعتها، إلا أننا الآن – وبإصرار- بصدد البحث عن فوائد جمة نزعم أن الأمة الإسلامية جنتها من هذا الغزو البربري (الصهيوغربأمريكي).

ولم يكن لنا من سبيل للحديث عن فوائد مع هذا الغزو لو كانت أمة أخرى هي التي تعرضت له غير أمتنا الإسلامية، ذلك أن الأمة دائماً ينبغي أن تنظر إلى الهدف البعيد في مسيرتها الإنسانية والحضارية دون الهدف القريب العاجل. ولم يكن لنا مـن سـبيل للحديث عن مثل هذه الفوائد لولا علمنا بالدور المنوط بهذه الأمة تجاه البشرية، رغم أنها الآن تعاني من حالة تراجع حضارية غـير مسبوقة في تاريخ مسيرتها، وهو تراجع - لاشك - وقتي يوشك أن ينجلي - بإذن الله - ومؤشرات ذلك تنبأ عن نفسها وهي أكثر من أن تحصى.. فما هي النتائج التي خرجت بها الأمة من هذا الغزو ؟

١ - سقوط الأقنعة الزائفة عن المدعين.

تمكنت القوى الغربية المتحالفة - ومن خلال وضع زمامها وإمكانياتها تحت الطلب الأمريكي - من تجييش قدراتها الـسياسية والإقتصادية والإعلامية والعسكرية وراء عمليات التحضير والإستعداد التي سبقت الحرب على العراق. وكانت - بحق - إمكانيات أكبر من أن توصف، وهو ما أرجف المرجفين وأفزع المفزوعين من عمداء الأنظمة العربية الرسمية، وكان له الأثر الأكبر في جعـل هؤلاء يقدمون كل فرائض الطاعة والولاء للسيد الأمريكي قبل أن يطلبها صراحة، ومع هذا الإرجاف - وربما بدونه - سـقطت أقنعة الزيف والبهتان عمن غلبوا مصالحهم الشخصية وأغراضهم الذاتية على كرامة الأمة وأمنها وسلامة ربوعها وأراضيها.

** على الصعيد الخارجي

- فالأقنعة الزائفة التي بدت مع قرع طبول الغزو كثيرة، وأشهرها أكذوبة "نشر الحرية وإسقاط الدكتاتورية" التي ادعاها أصحاب هذه الأقنعة من الأمريكيين وحلفائهم، ورغم أن هذه الإدعاءات لم تكن بحاجة إلى برهان للتأكد من زيفها، إلا أن الأمور سريعاً ما بدأت تتكشف، ليعرف من لا يعرف أن أعداء الأمة لن يحلوا مشاكلها، ولم تكن العراق هي البلد الوحيد من البلدان الإسلامية التي خضعت لحكم الإستبداد والدكتاتورية، ولم يكن دكتاتور العراق أسوء من باقي أشقائه الطغاة في العالم العربي، ولم يكن مجرمو الحرب وناهبو الثروات صادقين فيما روجوا له من أكاذيب قبلها المغفلون وأنطوت عليهم.

- الأكذوبة الثانية هي "البحث عن أسلحة الدمار الشامل" وحقيقةً هذه ليست أكذوبة لأن الغزاة بالفعل دخلوا العراق وكان هذا السبب أحد دوافعهم، وقد يكون هو الهدف الحقيقي الوحيد الذي أعلنوه . إلا أنهم - ولفرط خوفهم على أمنهم وهو حقهم - ظنوا وكان الظن إثم، لأنه لا وجود لهذه الأسلحة في العراق. وحتى لو كانت هذه الأسلحة لدى العراق أكان ذلك يستوجب تدمير دولة كاملة على أهلها؟؟ فماذا إذن عن الترسانات النووية لدى الآخرين؟؟ أهي حلال لهم حرام على العراق؟؟؟.

** على الصعيد الداخلي

وهنا أعني الأنظمة العربية الرسمية التي قبلت غزو العراق - قبول غير معلن - وقدمت التسهيلات للغزاة، وهي عديدة لا يخفى صنيعها على كل متابع.. وأعني كذلك وسائل إعلام (صحف، وإذاعة)، ومنظمات، ومؤسسات بحثية، سعت لإقناع الرأى العام العربي والإسلامي بوجاهة ما يطرحه المحتلون من مبررات لإغتصاب دولة الخلافة العباسية. كما أشير إلى عملاء الداخل، والمنتفعين من هذا التدمير، والذين قبضوا الثمن، وهم كثير أيضاً جهات وأحزاب وتكتلات وطوائف وأفراد من أبناء العراق الأسير نشأوا على ترابه وشربوا ماءه ثم طاب لهم أن يبيعوه رخيصاً.

٢- الإطلاع على الحجم الحقيقي لقوة الأعداء.

وحيث كنا نسمع - في السابق - ونقرأ عن أسطورة : صواريخ كروز، وتوماهوك، وطائرات الـ (إف ١٦) و الـ (إف ١٥) و(الشبح) والـ (بي ٥٢) وحاملات الطائرات التي تجوب بحار الدنيا ، ومشات البحرية (المارينز). ثم تبين لنا بفضل هذا الغزو - الذي فُرض على الأمة ولم تسع إليه - وهمية كل هذه المسميات وغيرها، وكيف رأينا أبناء الإسلام في العراق - أُسد الشرى - ينصبون فخاخهم لتكنولوجيا الحرب الأمريكية، وأحدث آلة تدميرية عرفتها البشرية، وبأقل عدد وعدة تمكن أبناء الأمة البررة من تحويل الهزيمة بل النكسة إلى نصر.

ولعله ليس من المستغرب أن الحديث الآن لم يتوقف عند الإنسحاب الأمريكي من العراق - البلد الذي ظنوا ثرواته مستباحة - بل صار الحديث الآن يتردد عن الإنهيار الذي تتعرض له القوة العسكرية الأمريكية منذ دخولها العراق.

فقد حذر تقريران من أن الجيش الأمريكي يتعرض لضغوط خطيرة بسبب وجوده في العراق، واعتبرا أن ذلك ستكون له آثـار ضارة طويلة الأمد على هذا الجيش. واتهم تقرير إدارة جورج بوش بالفشل في تجهيز القوات وتجنيد الأعداد الكافيـة، وقـال : إن (هذه السياسة) "خلقت خطراً حقيقياً بإنهيار القوة" العسكرية الأمريكية.. وأشار إلى أن "هذه العوامل ستخلق ضغوطا داخلية هائلة للبدء في خفض عدد القوات الأمريكية من العراق أياً تكن الظروف على الأرض".

وحذر "اندرو كريبنيفيتش" الخبير العسكري الذي استعان به البنتاجون لتقييم الحرب في العراق، حذر من أن انخفاض معنويات الجيش المثقل بالأعباء ، وتراجع الدعم الشعبي للحرب، سيهددان قدرة الجيش وقوات مشاة البحرية الأمريكية".

كما نشرت وكالات الأنباء خبراً فحواه أن الجيش الأمريكي أجبر ٥٠ ألف جندي على الاستمرار في الخدمة بعد انتهاء مـدة تطوعهم بموجب سياسة أطلق عليها اسم "منع الرحيل" . وقال خبراء عسكريين : إن هذه السياسة تظهر مدى الـضغط الـذي يواجهه الجيش الأمريكي، وإنها قد تزيد من صعوبة تجنيد قوات جديدة خاصة أن الجيش الأمريكي يقوم على نظام التطوع.

وقالت لورين تومسون محللة الدفاع في معهد لكسينجتون للأبحاث : "مع طول أمد حرب العراق تفاقمت في الجيش مجموعـة من المشكلات قد يطرح تراكمها تساؤلاً بشأن مدى صلاحية جيش مكون بالكامل من المتطوعين". وجاء في دعوى رفعها جنديان من الحرس الوطني ضد سياسة منع الرحيل : "إن الجيش لجأ للاحتيال ليحث الجنود على الإنضمام (إليه)".

وكانت واشنطن قد أبطلت سياسة التجنيد عام ١٩٧٣ إلا أنه ومنذ ذلك الحين لم يسبق للجيش الأمريكي المكون بالكامل من المتطوعين أن خاض حرباً طويلة، ومثلت الحرب على العراق الإمتحان الصعب والذي لم يكن في الحسبان، وهو ما يعني أن الـذين خططوا لهذه الحرب لم يظنوا يوماً ما أن العراق صعب المراس إلى الحد الذي ستنهار معه قوتهم العسكرية.

٣ - صلابة الأمة وقدرتها على المقاومة ولو بأقل عدة وعتاد.

فقد تبين لكل متابع لمؤشر صمود الأمة فى ساحات المجابهة التاريخية - ومثالنا هنا العراق - أن إحدى مكامن القوة، في هـذا الجسد الإسلامي، الممتد من مشارق الأرض إلى مغاربها.. تمثلت في قدرته على الصمود، وصبر أبنائه، واستمراره في الدفاع، مهما نال من ضربات، وإن كانت موجعة، وبدت مفرطة في آلامها وتزفها الجراح.

فقد استطاع هذا الغزو الغربي للتراب الإسلامي في العراق، أن يعرى الحقائق لمن طلبها، وكان أكبر هذه الحقائق وأجلـها .. قدرةُ الأمة على الثبات والنزال، والتأكيد العملي، على أن الأمةَ الإسلاميةَ، حينما تعزم على مطاردة العدوان، تطارده ولو بغير عدة، وبدون أي وسائل .. فكأن التاريخ يعيد صفحاته : "لا نقاتلهم بعدد ولا بعدة، وإنما نقاتلهم بهذا الدين".

وإن النكبات التى تآزرت للقضاء على هذا الجسد النابض، بروح عقيدته، وإيمان أبنائه، لم تؤثر في عزيمته، بل لم تزده سـوى أصراراً على الإصرار. فلم تكن الجيوش المتداعية من كل أقطار الأرض، بخيلها ورجلها، لتفت من عزيمة الأمة، كمقدمة للإجهـاز عليها، وإنهاء وجودها العقيدي والإنساني.

٤- لن يدافع عن الأمة إلا أبناؤها.

والحقيقةُ الأكبر التي تجلت لنا مع جريمة الغزو الأمريكي للعراق، هي أن الأمةَ الإسلامية حينما تقاتل، لاتقاتل بجلاديها، ولا بمن سلطوا على رقابها زوراً، وإنما تدفع بأبنائها، الذين هم مستعدون - في كل وقت وعلى أي جزء من ترابها - أن يضحوا بدمائهم في سبيل كرامتها.

ولقد أثبت أبناء الأمة - بدمائهم - أنهم أهل لرفعتها ، ومتأهبون – دائماً- لنصرتها ، ولقد اطلعت البشرية جمعاء على ما بذله شباب الإسلام على ساحة العراق، في ظل مصاعب وأخطار، ومع قلة النصير، وقوة عدوهم وعدته وعتاده، وصـمت البـشرية المخزي أمام ما تعرضوا له من جرائم.

ولما كان لكل ساحة رجال، فقد تبين جلياً أن للقصور رجالها، وللدولارات رجالها، وللعمالة رجالها، وكذا للجهاد والـدفاع عن حمى الأمة وأعراضها رجال أيما رجال.

ولكي تظل سنة التدافع قائمة بين الحق والباطل فلابد من الإستمرار في حشد طاقات الأفراد والجماعات معاً، وتجيشها للـذب عن حياض الإسلام وهويته أمام ما يتربص به من أخطار، كل بحسب قدرته، وكل في مجاله، على أن نضع أهداف الأمـة وأمنهـا وسلامتها نصب أعين الجميع.

٥- العقيدة هي المحرك والضامن الذي لو تخلت عنه الأمة لضاعت في غياهب التيه.

إن العقيدة الإسلامية، التى أنبتت في روح المسلم، هذه العزيمة على الثبات - بدون أي وسائل - وأعطته القوة لمجابهة أعتى عتاة الطغيان في الأرض، لتقدم أروع الحقائق التي يتحسسها العقل البشري، على أحقية هذه العقيدة الربانية الخالصة. والعقيدة الإسلامية لهي قوة الدفع الروحية الوحيدة الدالة على ثبات الأمة، وصمودها أمام ما تواجهه من تحديات وأخطار.

ولعله جدير بالأمة الإسلامية أن تعمل على رفع الحواجز التي طالما وضعت للحيلولة دون تربية الإجيال الإسلامية علـى هـذه العقيدة الربانية، فلولا العقيدة التي انعقدت عليها القلوب لتاهت الأمة في غياهب الظلمات، ولتمكن أعداؤها من رقبـة أبنائهـا، ولأستبيحت حرماتها، وانتهبت كرامتها.

٦- التاريخ لا ينسى ... والأمة باقية لم تمت.

ولعله المكسب الأجل للأمة الإسلامية من هذا الصراع الذي فرضه عليها الآخرون، وخاضته ليس إلا للدفاع عـن حـصونها وكرامتها. فالتاريخ لن ينسى الحرمات التي انتهكت، والدماء التي سالت، والفظائع التي أرتكبت.. والتاريخ لن ينسى المجـرمين ولا المتواطئين على الإجرام ولا الساكتين عليه والمصفقين له. والتاريخ لن ينسى الموقف الذي وقفه حفنة قليلة من أبناء الأمة للدفاع عن حماها، كما لن ينسى المتخاذلين، ولن ينسى الموقف الدفاعي للأمة نفسها أمام جرائم الآخرين.